

معجم الأمثال الفلسطينية

حسين علي لوباني

بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٩٩، ٩٣٧ صفحة.

المثال والنكتة أكثر أنواع التعبير جرياناً على الألسن وشيوعاً بين الناس. والمثل عبارة موجزة ورشيقة تلخص فكرة أو توجز تجربة. لذا قيل إن "المثل حصيلة تجارة مفلسة"، أي أنه نوع من الحكمة الشعبية ما كان لها أن تنضج إلا بعد تجربة مريرة. ويختلف المثل عن القول المأثور؛ فالقول المأثور معروف قائله، بينما المثل مجهول المصدر. وهو يختلف عن الحكمة أيضاً؛ فالحكمة محصلة العقل والسمو، بينما المثل محصلة التجربة البشرية بسموها ووضعها. وثمة الكثير من الأمثال المنحطة مثل: "أضرب البري حتى يعترف المفترى"، أو "أضرب الأعمى واكسر عصاه ما إنت أكرم من ربو يلي عماه"، أو "إشلع خبزك بالعاصي ولا تطعميه للراسي".* فالمثل، إذًا، نوع من الأدب يمتاز بالإيجاز والرشاقة وحسن المعنى ولطف التشبيه.

العرب والأمثال

اهتم العرب كثيراً بالأمثال والحكم والأقوال، وصنّفوا في ذلك الكثير من الكتب أبرزها: "الزاهر" لابن الأنباري؛ "كتاب الأمثال" للميداني؛ "الفاخر" لابن عاصم الكوفي؛ "أمثال العرب" للمفضل بن محمد الضبي؛ "جمهرة الأمثال" لأبي هلال العسكري؛ "المستقصى من الأمثال" للزمخشري؛ "المستطرف في كل فن مستظرف" للأبشيهي. وبعد أن ضاعت الأمثال السريانية وطواها النسيان باندثار اللغة السريانية التي ظلت سائدة في بلاد الشام حتى سنة ١٢٠٠م، تنبّه، فيما بعد، عدد من الأدباء والباحثين لهذا الأمر فبادروا إلى جمع ما تيسر لهم من الأمثال والأقوال المأثورة والحكم السارية مثل: "درر الكلام في أمثال أهل الشام" لمنير الكيال؛ "الأمثال الشعبية الشامية" لنزار الأسود؛ "معجم الأمثال اللبنانية" لأنيس فريحة؛ "موسوعة الأمثال اللبنانية" لإميل بديع يعقوب؛ "الأمثال البيروتية" لسعد الدين فروخ. وتعتبر تجربة سلام الراسي في لبنان تجربة مميزة حقاً تمثلت في عدة كتب حاول صاحبها أن يجمع فيها ما أمكنه من الأمثال المتداولة في الجنوب اللبناني وفلسطين وبعض بقاع بلاد الشام. وأشهر هذه الكتب: "لئلا تضيع"؛ "في الزوايا خبايا"؛ "حيص بيص"؛ "حكي قرايا وحكي سرايا"؛ "شيخ بريح". أمّا في فلسطين فقد جمع القس سعيد عبود الأشقر خمسة آلاف مثل وصدرت في كتاب عن قسم اللغات الشرقية التابع لجامعة برلين سنة ١٩٣٧

* الراسي نسبة إلى قرية راس بعلبك أو ربما راس العين.

(أعاد زياد منى إصدارها، بعد تنقيحها، في دمشق عن دار الأهالي سنة ١٩٩٦).

أمثال الداموني

إن "معجم الأمثال الفلسطينية" الذي أصدره حسين علي لوباني الداموني هو عمل جليل ونفيس بالمقاييس جميعاً. فقد جمع نحو عشرة آلاف مثل ظل يتسقطها من أفواه الناس ويدونها ويصنفها ويضبط رسمها ويشرح كلماتها طوال خمسة عشر عاماً حتى جاءت على مثل هذا الشمول والدقة والإحكام. ويختلف هذا العمل عما صنعه سلام الراسي؛ فالراسي كان يتتبع "ذنب المثل" فيحكي حكايته ويروي الأحداث التي انتهت إلى بروز "الحكمة" في هيئة مثل. ويختلف هذا العمل، أيضاً، عما فعله القس سعيد عبود الأشقر؛ فالأشقر اكتفى بسرد الأمثال فقط من غير أن يشرح معانيها أو مفرداتها أو المناسبة التي ابتدعت المثل. أما ما قام به الأستاذ لوباني فجاء أكثر إحاطة وإحكاماً؛ فهو يذكر المثل ويرسم حروفه بالطريقة التي يُلَفِّظُ بها من غير زيادة أو نقصان، ثم يعتمد إلى شرح الكلمات، ثم يحدد المناسبة التي يقال فيها المثل والغاية منه. وفي كثير من المواضع يردف المثل بمثل آخر متقارب المعنى أو بقول مأثور مشابه.

على أن التحفظ الوحيد عن هذا المعجم الممتاز هو عنوانه؛ فهذه الأمثال، في أغلبيتها الساحقة، ليست فلسطينية خالصة، وإنما هي أمثال بلاد الشام كلها، بل تشترك، في الكثير منها أيضاً، مع بقية أمثال البلاد العربية. صحيح أن المؤلف أشار إلى هذا الأمر في المقدمة الوافية، فلاحظ "أن هناك العديد من الأمثال التي تستعمل في المجتمع الفلسطيني، وفي الوقت نفسه، ترد على ألسنة لبنانيين أو سوريين أو أردنيين أو مصريين أو عراقيين" (صفحة ز)، إلا إنه لامس أطراف الفكرة ولم يدخل في ثناياها، كأنه يقول: إن هذه الأمثال هي فلسطينية، غير أن بعضها انتقل إلى البلاد العربية الأخرى بحكم المجاورة. وأحسب أن الأمر على غير هذا النحو بتاتاً. نعم، إنها أمثال فاشية في الشام والعراق ومناطق الجوار أيضاً، وهي تتبدل قليلاً هنا ويجري تحريفها قليلاً هناك تبعاً للبيئة المتغيرة، أكانت بدوية أم فلاحية أم مدينية أم جبلية أم ساحلية. وحبذا لو كان العنوان: "معجم الأمثال في فلسطين".

صقر أبو فخر

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>